3، 4- الرواد والتجربة الشعرية الجديدة

في أواخر الأربعينيات ظهر في العراق شعر جديد اصطلح عليه شعر التفعيلة أو الشعر الحر، ويختلف الباحثون حول من بادر إلى الكتابة في هذا الشكل الجديد للقصيدة العربية ، فلماذا لجأ الشعراء إلى هذه التجربة الجديدة؟ وما الذي يميز قصيدة الشعر الحر عن القصيدة التقليدية العمودية؟ وما حدود الحرية التي اتسمت بها القصيدة الحرة؟

تقول **نازك الملائكة:** "كانت بداية حركة الشعر الحر سنة 1947 في العراق، و من العراق بل من بغداد نفسها، زحفت هذه الحركة وامتدت حتى غمرت الوطن العربي كله وكادت، بسبب تطرف الذين استجابوا لها، تجرف أساليب شعرنا العربي الأخرى جميعا، وكانت أول قصيدة حرة الوزن تنشر قصيدتي المعنونة "**الكوليرا**" (...) وهي من الوزن المتدارك (الخبب)"

والخبب ضرب من سير الإبل وهو من أسماء بحر (المتدارك) ويسمى (المحدث) أيضا ومفتاحه العروضي (حركات المحدث تنتقل/فعلن فعلن فعلن فعلن) أو قولهم (خببا ذهبت تمشي الإبل/فعلن فعلن فعلن فعلن)، وهذا شيء من قصيدة (الكوليرا):

طلع الفجر
اصغِ إلى وقع خطى الماشينْ
في صمت الفجر، أصخْ،أنظر ركب الباكين
عشرة أموات،عشرونا
لا تحص أصخْ للباكينا
اسمع صوت الطفل المسكين
موتى، موتى، ضاع العدد
موتى، موتى، لم يبق غد
في كل مكان جسد يندبه محزونْ
لا لحظة إخلاد لا صمتْ
هذا ما فعلت كف الموتْ
الموت الموت الموتْ
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت

وكتبت في الهامش معلقة على تلك القصيدة وذكرت مناسبة نظمها والسبب الذي ساق الشاعرة إلى اكتشاف الشعر الحر: "نظمتها يوم 1947/10/27 فنشرتها مجلة (العروبة) في عددها الصادر في أول كانون الأول 1947 وعلقت عليها في العدد نفسه، وكنت نظمت تلك القصيدة أصور بها مشاعري نحو مصر الشقيقة خلال وباء الكوليرا الذي داهمها،وقد حاولت فيها التعبير عن وقع أرجل الخيل التي تجر عربات الموتى من ضحايا الوباء في ريف مصر. وقد ساقتني ضرورة التعبير إلى اكتشاف الشعر الحر".

كما وصفت الشعر الحر بأنه شعر ذو شطر واحد وبهذا فهو يختلف عن القصيدة العمودية ذات الشطرين "وهو شعر ذو شطر واحد ليس له طول ثابت وإنما يصح أن يتغير عدد التفعيلات من شطر إلى شطر".

وذكرت بأن الشعر الحر شعر تفعيلة "أساس الوزن في الشعر الحر أن يقوم على وحدة التفعيلة". كما أن البحور الصالحة للشعر الحر هي البحور الصافية ذات التفعيلة الواحدة وهي: الكامل (متفاعلن) والرمل (فاعلاتن) والهزج (مفاعيلن) والرجز (مستفعلن) والمتقارب (فعولن) والخبب (فاعلن) وبحران ممزوجان تتكرر إحدى تفعيلتيهما بتتابع وهما السريع (مستفعلن مستفعلن فاعلن) والوافر (مفاعلتن مفاعلتن فعولن).

ثم أشارت إلى **قصيدة بدر شاكر السياب (هل كان حبا)** التي ظهرت ضمن ديوان (أزهار ذابلة): "وفي النصف الثاني في الشهر نفسه (كانون الأول 1947) "كانون الأول أول الشتاء"صدر في بغداد ديوان بدر شاكر السياب (أزهار ذابلة) وفيه قصيدة حرة الوزن له من بحر الرمل عنوانها(هل كان حبا) وقد علق عليها في الحاشية بأنها من (الشعر المختلف الأوزان و القوافي).

لكننا حين بحثنا في ديوان (أزهار ذابلة) للسياب المنشور عام 1947 وجدنا السياب يؤرخ لقصائده في نهايتها مع الإشارة إلى مكان نظمها –عادة– فقد كتب تحت نص هذه القصيدة (بغداد: 29-11-1946). وهذا شيء من مطلعها:

هل تسمين الذي ألقى هياما؟
أم جنونا بالأماني، أم غراما؟
نوحا وابتساما؟ !ما يكون الحب؟
أم خفوق الأضلع الحرى، إذا حان التلاقي
بين عينينا فأطرقت، فرارا باشتياقي
عن سماء ليس تسقيني، إذاما
جئتها مستسقيا، إلا أواما؟

هل يكون الحب أني

بت عبدا للتمني ! ؟

أم هو الحب اطراح الأمنيات

والتقاء الثغر بالثغر، ونسيان الحياة؟

واختفاء العين في العين انتشاءا

كانثيال عاد يفنى في هدير

أو كظل في غدير.

من المحتمل أن يكون السياب قد كتب قصيدته قبل قصيدة الملائكة أي قبل أشهر من طبع الديوان، كما أن تاريخ النظم الذي قيده في آخر القصيدة (29-11-1946) يوحي بذلك ويقويه .وهذا يعني أنه الأسبق، وما دام تاريخ النظم قد يدخل فيه شيء من الافتعال والمزايدة فما التاريخ الذي نعتمده كمقياس للأسبقية والريادة هل هو تاريخ النظم؟ أم تاريخ النشر؟

ثم إن نازك الملائكة وإن كانت قد نسبت إلى نفسها ريادة الشعر الحر في كتابها قضايا الشعر المعاصر الذي طبع لأول مرة عام 1962 وقدم له زوجها الدكتور عبد الهادي محبوبة، فإنها تستدرك في الطبعة الخامسة للكتاب عام 1978 وفي مقدمته بقلمها لتفيدنا بأنها لم تطلع آنذاك على محاولات في سبيل قصيدة الشعر الحر سابقة لقصيدتها "الكوليرا" تمثلت في ما كتبه علي أحمد باكثير ومحمد فريد أبي حديد ومحمود حسن إسماعيل وعرار شاعر الأردن ولويس عوض وبديع حقي ومحاولات أخرى لم تذكر أسماء أصحابها. لكن الشاعرة قد توجهت إلى الشعر الحر عن وعي واقتدار وإيمان بأن هذه التجربة ستضيف شيئا ذا قيمة للشعر العربي.

تقول الملائكة: "وفي صيف سنة 1949 صدر ديواني (شظايا و رماد) وقد ضمنته مجموعة من القصائد الحرة وقفت عندها في مقدمة الكتاب المسهبة وأشرت إلى وجه التجديد في ذلك الشعر وبينت موضع اختلافه عن أسلوب الشطرين ثم جئت بمثال من تنسيق التفعيلات وعينت بعض البحور الخليلية التي تصلح لهذا الشعر. وما كاد هذا الديوان يظهر حتى قامت له ضجة شديدة في صحف العراق(...) وفي آذار (مارس) 1950 صدر في بيروت ديوان أول شاعر عراقي جديد هو **عبد الوهاب البياتي** وكان عنوانه (ملائكة وشياطين) وفيه قصائد حرة الوزن، تلا ذلك ديوان (المساء الأخير) **لشاذل طاقة** في صيف 1950 ثم صدر (أساطير) لبدر شاكر السياب في أيلول "سبتمبر" 1950 وتتالت بعد ذلك الدواوين ".

حيث ما فتئت هذه التجربة الشعرية الجديدة أن انتشرت في باقي الدول العربية بعد أن لاقت الكثير من الرفض والصدود، لكنها استطاعت أن تؤسس لنفسها وتلقى الكثير من المؤيدين والأنصار سواء على مستوى المبدعين أو على مستوى القراء والمتلقين.

وحين نظم **نزار قباني** قصيدته **(جانين)** و انتقدها الناقد اللبناني مارون عبود رد عليه نزار قائلا: "الفن الشعري كالفن المعماري يمكن فيهما توليد أشكال لا حصر لها، فكما أن الفن المعماري يعتمد على وحدة أساسية – هي الحجر – لإخراج ألوف التصاميم، فإن بإمكان الشاعر أن يأخذ الوحدة الأساسية للنغم – أي التفعيلة أية تفعيلة – لتوليد أشكال شعرية لا نهاية لها".

فكما أن الموقف التعبيري دعا الملائكة إلى كتابة الكوليرا بطريقة التفعيلة كذلك فعل نزار حين زار قبو (التابو) في باريس ووصف جانين وهي ترقص قائلا:

كان اسمها جانين
لقيتها، أذكر ، في باريس من سنين
أذكر في مغارة التابو ...
وهي فرنسية
في عينها تبكي
سماء باريس الرمادية
كان اسمها جانين
وهي وجودية
تعيش في التابو...وللتابو

قال نزار معلقا على هذه القصيدة: " كان من المستحيل عليّ أن أكتب عن جانين والجاز والمونمارتر بالبحر الطويل أو البسيط، لأن صلة الموضوع بإطار العرض حقيقة لا يمكن الفرار منها".

فالشعر الحر إذن شعر ينساب وفق موسيقى العروض العربية إرث الأجداد من الشعراء القدامى وهو شعر موزون عماده التفعيلة بدل البحر والشطر أو السطر الشعري بدل الشطرين، كما أن القافية لم تهمل إنما تظهر وتختفي وتتعدد في القصيدة الواحدة بدلا من أن تكون موحدة وهذا يعطي الشاعر شيئا من الانطلاق والتحرر بحيث لا يجد نفسه مرغما على أن يبدأ من نقطة لينتهي عند نقطة أخرى معلومة مسبقا عند القافية وحرف الروي الموحد، لذلك اختلف الشكل الهندسي والبنائي في القصيدة الحرة عن الشكل التقليدي .

وقد يلجأ بعض الشعراء إلى **توزيع القصيدة العمودية على منوال القصيدة الحرة** لإيهام القارئ العادي أنها من الشعر الحر، لكن القارئ المتمرس للشعر العربي يمكنه كشف البنية الموسيقية للقصيدة من خلال ترديد سطورها.

وقد **يجمع الشاعر الأصيل المتمرس بين النظامين العمودي والحر** في القصيدة الواحدة وهذا ما قرأناه في شعر السياب في قصيدة نظمها بالكويت عنوانها (ليلى).

من خلال ما كتب من شعر التفعيلة يلاحظ أنه تجربة فرضتها سنن التجدد والواقع الجديد والنزوع إلى التحرر.

هي تجربة لم تتخل كلية عن موسيقى الأجداد باعتبارها تعتمد على النوطة الموسيقية القديمة أي التفعيلة مع التنويع في القافية.

هي تجربة تنزع إلى توظيف التراث والتاريخ والأساطير الرموز المختلفة من رموز لغوية وطبيعية وأسماء الأعلام وأخرى أسطورية مما جعل بعض شعر التفعيلة لدى بعض الشعراء – وإن أعطى أبعادا دلالية – يوغل في الغموض والإبهام والضبابية.

يلجأ الشعراء أحيانا إلى **تكرار بعض الألفاظ والعبارات** في ثنايا القصيدة بحيث تصير **لازمة** يلتزمها الشاعر. وهذا ما رأيناه لدى الشاعر الفلسطيني سميح القاسم في قصيدة (خطاب في سوق البطالة).

يلجأ بعض الشعراء إلى المزاوجة بين النظامين العمودي والتفعيلة في القصيدة الواحدة، كما قد يزاوجون بين أكثر من بحر واحد أو تفعيلة واحدة.

النزوع إلى الوحدة العضوية في القصيدة بحيث تتلاحم أجزاءها ومعانيها وحتى سطورها عن طريق التدوير، بحيث تبدأ التفعيلة في آخر السطر لتكتمل في بداية السطر الذي يليه.

هي تجربة أتقنها الكبار من الشعراء الذين أُلِفوا أن يبدعوا القصيدة العمودية عن اقتدار فأضافوا رصيدا ثريا للقصيدة التراثية، لكن بعض الشعراء استسهلوا نظام القصيدة الحرة ومنهم من تمرد كلّية على موسيقى الشعر وموازينه.

ترجمة الشاعرة نازك الملائكة: نازك الملائكة شاعرة عراقية ولدت في بغداد في 1923، وتخرجت من دار المعلمين عام 1944، و في عام 1949 تخرجت من معهد الفنون الجميلة فرع العود ودرست اللغة اللاتينية في جامعة برستن في الولايات المتحدة الأمريكية، كما درست الفرنسية و الإنجليزية ترجمت بعض الأعمال بالإنجليزية عادت في 1959 إلى بغداد، و التحقت قبلها في 1954 بالبعثة العراقية إلى جامعة وسكنسن لدراسة الأدب المقارن فاطلعت على مختلف الآداب العالمية.

اشتغلت بالتدريس في كلية التربية ببغداد عام 1957 ثم تركت العراق لتقيم في بيروت و هنا بدأت تنشر أعمالها الشعرية و النقدية، ثم عادت إلى العراق لتدريس اللغة العربية وآدابها في جامعة البصرة، تعد نفسها رائدة الشعر الحر (التفعيلة). من دواوينها عاشقة الليل ، شظايا و رماد، قرار الموجة، شجرة القمر، مأساة الحياة، أغنية الإنسان، يغير ألوانه البحر، الصلاة و الثورة، ومن آثارها في النقد: قضايا الشعر المعاصر، سيكولوجية الشعر 1993. كتبت في النقد، ونقد الشعر وتوفيت في جوان 2007.

ترجمة بدر شاكر السياب: ولد السياب في قرية جيكور من البصرة في 1926، درس الابتدائية هنالك ثم واصل الثانوية. التحق بدار المعلمين العالمية ببغداد (فرع اللغة العربية) في سنة 1945 انتقل إلى فرع اللغة الإنجليزية بالرمادي وعرف بميوله اليسارية(الشيوعية) ففصل وأودع السجن. اضطر في 1952 إلى التوجه إلى إيران فإلى الكويت. ناضل في سبيل تحرير العراق من الإنجليز وتحرير فلسطين، رجع إلى بغداد في 1954 فمارس الصحافة و العمل في مديرية الاستيراد و التصدير، حين ثار عبد الكريم قاسم على النظام الملكي كان من مؤيديه، وفي 1959 انتقل من التعليم إلى السفارة الباكستانية...

وفي 1962 أدخل مستشفى الجامعة الأمريكية بيروت بسبب مرض في ظهره "السل"، توفي يصارع الموت بالبصرة في 1964. عاش يعاني الحرمان والثورة على المجتمع مفرط الحساسية طموحا رومنسيا ثم واقعيا.

ترك: أزهار ذابلة 1947، أساطير 1950، الأسلحة والأطفال، حفار القبور، أنشودة المطر 1960، المعبد الغريق، إقبال...